

الوضعية الإثنوغرافية: في التدبير المنهجي للمسافة بين الباحث وموضوعه

The Ethnographic Position: Methodological Management of the Distance Between the Researcher and the Object of study

علواش إسماعيل Alouache Ismail

دكتور باحث في علم الاجتماع

كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة ابن طفيل القنيطرة، المغرب

tayabalouache1991@gmail.com

المنجلي عبد الحفيظ Elmounajli Abdelhafid

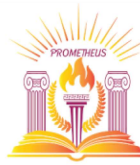
دكتور باحث في الآداب

جامعة الحسن الثاني الدار البيضاء، المغرب

abdelhafid.elmounajli@gmail.com

مقدمة:

تتناول هذه الورقة البحثية موضوعا، يتعلق بالوضعية الإثنوغرافية للباحث في ارتباطه بالتدبير المنهجي للمسافة بين الباحث وموضوع بحثه، وذلك من خلال وقوفنا على أدق (عن طريق استعمال آلية الحكي) تفاصيل التفاصيل التي تعترض الباحث/ والمبحوث في نفس الوقت، غير أن هذه الوضعية الإثنوغرافية حاملة لمعاني ودلالات، تمثلات ورؤى وقيم اجتماعية وثقافية بمجتمع الدراسة، استأثرت اهتمامنا منذ المرحلة الأولى من البحث التمهيدي، حاولنا أن ندونها هنا وهناك في مناسبات عدة وفي أزمنة وأمكنة ارتبط أساسا ببرنامج البحث الميداني، من جهة، لقد قادتنا هذه الورقة العلمية إلى عرض أفكار، سلوكيات وأفعال، انطباعات، ردود أفعال واضحة وبيئة/مضمرة ومتخفية، مواقف أفراد وجماعات رسمية وغير رسمية أدت في الآخر إلى إبراز علاقة البحث السوسيولوجي واستقلاليته، من خلال تدوينها وتركيبها قصد الخروج بهذا النص المكتوب ومن جهة أخرى، حاولنا معالجة إشكالية تدبير المسافة بين الباحث وموضوع بحثه، على أساس أن الباحث/ ابن القبيلة كمجال للدراسة الميدانية بأيّت وراين الشرقية بشرق المغرب، جرسيف، بناء على افتراض نطلق منه كون المغامرة الميدانية لجمع المعطيات (المقابلة والاستمارة) لا يمكن أن نتوقع ما ستؤول إليه مجرى الحوارات واللقاءات مع المشاركين/ والمشاركين في



البحث؛ لذلك كل شيء ممكن ووارد في نفس الوقت كما قد يكون غير متوقع وغير متوقع المهم أن يكون الباحث متيقظ باستمرار ويقظ في التعامل مع كل الاحتمالات الواردة من الميدان، هكذا سننعمد في هندسة هذه الورقة على الشكل التالي؛ أولاً: الوضعية الإثنوغرافية وعلاقتها بالبحث السوسولوجي والأنثروبولوجي، ثانياً: في التدبير المنهجي للمسافة بين الباحث وموضوعه، ثالثاً: الباحث والميدان مشكل السياسة الدينية الرسمية، خلاصة تركيبية.

الكلمات المفتاحية: الوضعية الإثنوغرافية، أيت وراين، المجال، الثقافة، المنهج التأويلي الرمزي.

Abstract:

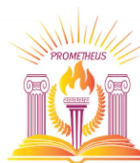
This research paper examines the ethnographic position of the researcher in relation to the methodological management of the distance between the researcher and the research subject. By employing narrative as a methodological tool, it explores the finest details of the interactions and experiences encountered by both the researcher and the participants throughout the fieldwork process. This ethnographic position carries meanings, representations, perceptions, and social and cultural values specific to the society under study.

These aspects attracted our attention from the very first stage of the preliminary fieldwork and were documented on various occasions, within the temporal and spatial framework of the field research plan. This paper presents ideas, behaviors, actions, impressions, explicit and implicit reactions, as well as the positions of individuals and formal and informal groups. These observations ultimately highlight the relationship between sociological research and its autonomy through their documentation, analysis, and synthesis in this written work.

Furthermore, the paper addresses the methodological challenge of managing the distance between the researcher and the research subject, particularly in the case of a researcher who is himself a member of the tribe serving as the fieldwork site in Eastern Aït Ouarain, Guercif Province, eastern Morocco. The study is based on the assumption that the fieldwork process of data collection through interviews and questionnaires does not allow researchers to predict the course of interactions and meetings with research participants. Therefore, every situation is possible—both expected and unexpected. The essential requirement is that the researcher remains constantly alert and attentive to all possibilities that may arise during fieldwork.

Accordingly, this paper is organized into the following sections: first, the ethnographic position and its relationship to sociological and anthropological research; second, the methodological management of the distance between the researcher and the research subject; third, the researcher and the field: the issue of official religious policy; and finally, a concluding synthesis.

Keywords: Ethnographic Position, Aït Ouarain, Territory, Culture, Symbolic Interpretive Approach.



أولاً: الوضعية الإثنوغرافية في البحث السوسيولوجي والأنثروبولوجي

يعد استحضار وجهة نظر الوضعية الإثنوغرافية للباحث وعلاقته بالتدبير المنهجي للمسافة بين الذات والموضوع، والتي دأب عليها باحثون في العلوم الاجتماعية في الآونة الأخيرة، فأصبح كطقس لا بد منه في أي بحث سوسيولوجي وأنثروبولوجي على وجه التحديد، ونحن في هذه الوضعية نتوقف عند المحددات للسوسيولوجية الانعكاسية المتبادلة باعتبارها اختيار نظري ومنهجي يقوم معماره النظري على التراكم العلمي والثقافي، بناء على التحليل الانعكاسي والمقاربة الفينومينولوجية التأويلية (تأويل الفعل والبحث عن المعنى فيه)، هكذا نحاول تقديم موضوع الاشتغال "التدين النسائي القروي بالمغرب"¹⁰⁴، على هذا الأساس نعرض لتجربة شخصية "التجربة التدينية" والتي عاشها الباحث في تجربته الميدانية، تجربة أسست على علاقة انعكاسية بين ذات الباحث وذات المشاركات والمشاركين في البحث، من جهة أخرى يقوم هذا الاختيار المنهجي على الفحص النقدي - من خلال تدبير المسافة بين الباحث وموضوع البحث، تتأسس على معاشية تفاصيل وحيثيات، بمعنى آخر "أنثروبولوجيا التفاصيل" (موضوع) (التدين النسائي بالمغرب) كما هو معاش في العالم القروي كمختبر للتجربة التدينية، انطلاقاً من وضعية إثنوغرافية ملاحظة ومعيشة.

عشنا تجربة إثنوغرافية في إحدى قرى منطقة آيت وراين الشرقية بجرسيف، والتي يعود أصول هذه القبيلة كمجال للدراسة والبحث الإثنوغرافي الميداني إلى كونها قبيلة أمازيغية ذات أصول شرقية قادمة من فكيك نحو جبل "موسى وصالح" وانتمائهم إلى قبيلة زناتة¹⁰⁵.

وفي خضم هذا النقاش التعريفي للإغناء والمساهمة في التعريف بهذه المنطقة القروية القبلية الغائبة والمغيبية بفعل عوامل عدة نجمها في عدم الوعي بالاهتمام بالتاريخ المحلي والثقافة المحلية، نستحضر أعمال المؤرخ عبد الرحمان المودن "...أصل القبيلة فيما تواتر من أخبارها من ناحية فكيك، اتجهت تدريجياً نحو الشمال الغربي، إلى أعالي الأطلس المتوسط في جبال بويلان وإلى واد تانكرامت..."¹⁰⁶.

¹⁰⁴ - إسماعيل، علوش. أطروحة دكتوراه غير منشورة. التدين النسائي بالمغرب، بحث في الطقوس والممارسات الدينية دراسة سوسيوانثروبولوجية لمنطقة آيت وراين، إشراف د. زبيدة أشهبون، نوقشت يوم 25-04-2026.

¹⁰⁵ - إديل، عمرو، 1995: من جندي القبيلة إلى جندي الدولة؛ ملاحظات حول القوة العسكرية لدى قبائل آيت وراين، مجلة أمل، العدد 18، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ص. 165.

¹⁰⁶ - المودن، عبد الرحمان، 1995: البوادي المغربية قبل الاستعمار قبائل إيناون والمخزن بين القرنين 16 و19، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية أكدال الرباط، سلسلة أطروحات ورسائل العدد 25، جامعة محمد الخامس مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ص. 202-203.

في مقابل هذا التضارب في أصل التسمية، هناك من يعود بأصول القبيلة إلى صنهاجة¹⁰⁷، لقد جاء هذا الطرح التاريخي المتداول عند المؤرخ عبد الرحمان ابن خلدون "إن آيت وراين وعنده بني وارت ينتمون إلى صنهاجة... فهم من قبائل الرحل التي هاجرت من الحدود الموريتانية على إثر التحركات المرابطية من الجنوب إلى الشمال"¹⁰⁸، لقد استقروا آيت وراين في السفح الشمالي للأطلس المتوسط بجبل بويبلان، هروبا من الضغط الممارس عليهم من طرف السلطات العسكرية والمخزنية خلال القرن السادس عشر وفق ما أورده حسن الوزان¹⁰⁹.

إن علاقة آيت وراين بالأرض والثقافة الذين استقروا بهذا المجال الجغرافي والترابي منذ القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، حيث تميزت هذه المرحلة بما يعرف بالحركة التوسعية التي قامت بها قبيلة آيت وراين¹¹⁰ في اتجاه سهل مللو والفحامة، وبذلك تكون هذه الآخرة احتلت أجود الأراضي الصالحة للفلحة والزراعة.

بعد هذه اللوحة التاريخية حول تاريخ المحلي والثقافة المحلية للمنطقة وما قد يشوبه من بيضات، لنعود مرة أخرى إلى الأهمية الفعالة للوضعية الانتوغرافية، انطلاقا من استحضارنا للأدوات والآليات المنهجية ومستلزمات هكذا تجارب قابلة للكتابة والحكي الموضوعاتي/ المنهج التأويل الرمزي، من قبل الملاحظة والملاحظة بالمشاركة والمقابلات والحوارات الكثيفة مع فاعلي وممارسي الفعل الديني النسائي القروي أنموذجا، ونحن نتحدث عن هكذا تجربة فريدة من نوعها، فبقدر ما تتعدد التجربة الميدانية بقدر ما تتباين تفاصيلها البيئية والواضحة، وقد حاولنا أن نجعل من المضمر والغامض عن طريق التأويل الرمزي بيينا وواضحا.

في هذه الورقة البحثية، نقصد موضوع أطروحة الدكتوراه المشار إليه أعلاه لم نعتمد على "سيرة مقدمة الضريح" كان سيكون أكثر فعالية ودينامية داخلية وخارجية في بناء ميدان البحث وموضوعه ومفاهيمه،

¹⁰⁷ - إيديل، عمرو، 1995: م. م. س. م. ص. 166.

¹⁰⁸ - برحاب عكاشة، 2002: قبائل شرق تازة بين التوسع والدعوة إلى المهادنة-1909-1912، مجلة الذاكرة الوطنية، مطبعة بني ازناسن، ص. 59.

¹⁰⁹ - برحاب عكاشة، 2002: م. م. س. م. ص. 59-60.

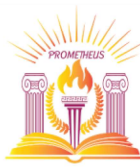
¹¹⁰ - من أجل التوسع أكثر عن تاريخ آيت وراين، يمكن العودة إلى كتابات التالية:

- أعمال: مقالات ودراسات وأبحاث عبد الصمد أزروال.

- أعمال: مقالات ودراسات أطروحة الجامعية عبد النور صديق.

- أعمال: مقالات ودراسات أبحاث عبد الله هرهار.

- أعمال: مقالات وأبحاث وكتابات عمر إيديل.



لأن أدوارها كانت بيئة وظاهرة من خلال أعمالها ومهامها وأفعالها وسلوكياتها وطقوسها ذات الصبغة الدينية "التدين الشعبي" التي تكون أولى مقدمات الدخول في هكذا ممارسات وطقوس وهكذا تجربة في الغوص داخل أماكن مشبعة بالمقدس؛ الأضرحة والزوايا والروضات التي تشرف عليها في موازاة فعلها التعبدية المرتبط بالتدين غير الرسمي في بعده الطقوسي، وأنماطه وأشكاله المتعددة من خلال تمظهرات السحر والشعوذة لما يتسم هذا الموضوع من صمت وكتمان، وربما منه يستمد سلطته الاستمرارية وقوته، فمجال الدراسة الميدانية قبيلة أيت وراين؛ مجال غني بالأولياء والصالحات "الشريفات" والفقيهات اللواتي يتميزن ويمنح لهن رأسمال رمزي واجتماعي واضح يضرب لهن ألف حساب بالمعنى الشعبي للكلمة، من حيث الكرامات والخوارق كالأخبار بالمستقبل وتأمين الخائف والحماية من اللصوص والبحث عن الكنوز...

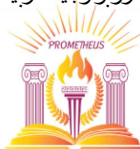
يتضح أن أهمية الوضعية الإثنوغرافية التي تتجسد في تشخيص واقع التدين النسائي بالمجتمع القروي، بناء على الدور الفعال الذي يضعه الباحث بينه وبين موضوع البحث، فاستثمار المسافة بينهما يؤدي إلى محاولة فهم الواقع الاجتماعي والثقافي باستعمال المنهج التأويل الرمزي في مواجهة واقع متشعب ومركب يتداخل فيه الفردي مع الجماعي.

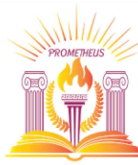
ثانيا: في التدبير المنهجي للمسافة بين الباحث وموضوعه

لقد قادتنا هذه التجربة الإثنوغرافية إلى خوض تجربة إعادة تعريف المجال والسياق التاريخي والاجتماعي والثقافي لتشكيل عناصر القبيلة تعريفا ثقافيا بأبعاد ومحددات سوسيولوجية وثقافة وأنتروبولوجية الاجتماعية والثقافية، من خلال العودة إلى استحضار التراكم العلمي والثقافي لأعمال الباحثين الأجانب نستحضر على سبيل الاستئناس لا الحصر، أعمال كل من "إدموند دوتي، إرنست غلنر..." وأعمال باحثين مغاربة "عبد الغني مندوب، إدريس الصنهاجي، فاطمة المرنيسي، أسماء لمرايط..."، حاولنا وضع مقارنة مع أعمالهم واستحضرنا الاختلافات المنهجية بين الزمان والمكان والمنطلقات النظرية والمنهجية.

يعد مفهوم "الغربة في صميم الحميمة" الذي نحتة الباحث الأنثروبولوجي المغربي عبد الله حمودي¹¹¹، والذي يجسد الوضعية الإثنوغرافية لباحث وافد/ براني عن مجال الدراسة ليستقر في ميدان بحثه "القبيلة كمجال للدراسة" من خلال مدة الإقامة في الميدان، وقد فصل الباحث الأنثروبولوجي المغربي حسن رشيق

¹¹¹ - حمودي، عبد الله، 2019، المسافة والتحليل: في صياغة أنثروبولوجيا عربية، دار توبقال للنشر، البيضاء، ص 37.





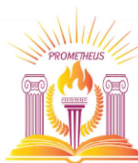
من خلال المنجز الأنثروبولوجي حول المغرب¹¹²، مدة طويلة أو قصيرة، مد وجزر، ذهاب وإياب، دخول وخروج، الذي لم يفارقنا طيلة هذا البحث، حتى يصبح من أبناء المنطقة " اللسان واللباس والهندام هما أدوات وطرق فعالة في المساعدة على جمع المعطيات من الميدان بالمجتمع القروي"، حيث يندمج الباحث ويتفاعل مع الأفعال والوقائع الاجتماعية بشكل لا يثير أي حساسية للسكان الأصليين، أي يصبح واحدا منهم ويشبههم في كل شيء، ما عدا كونه يضع مسافة بينه وبين موضوع البحث، وفي هذه الوضعية تستعمل مفاهيم متداولة في الحقل السوسيولوجي والأنثروبولوجي من قبل الغريب المحلي/ البراني المحلي، وهو ما يعبر عنه في الأدبيات السوسيولوجية بالإنثوغرافي المحلي الذي يدرس مجتمعه، كما في حالتنا أيت وراين الشرقية أنموذجاً.

وبعيدا عن البرانية الاستعلائية وأن لا نسقط في الذاتية ونجر وراءها إنها بالدرجة الأولى اتصال وانفصال قرب وبعد بين الباحث وميدانه، ولقد حاولنا استثمار موقعنا الاجتماعي في البحث في ثانيا وإشكالات لتلك القضايا التي يطرحها هذا الموضوع (التدين النسائي بالمغرب) العصي عن الإدراك.

إن الولوج إلى الميدان والمغامرة في دروبه وتشعباته المتباينة (التناقض والتكامل) في نفس الوقت، استوجب الأمر من الباحث التزام بخصائص المنهجية الإثنوغرافية لتسهيل عملية الوصف والوصف المكثف بمجتمع الدراسة، بهدف الانغماس في السياق الاجتماعي والثقافي الذي أدى إلى ظهور أنماط وأشكال من التدين النسائي في المجتمع القروي، إذ شكلت هذه الوضعية الإثنوغرافية في هكذا أبحاث سوسيولوجية وأنثروبولوجية والتي أسست أساسا على اختبار مدى قدرتنا على المزج بين موقعنا الاجتماعي بكوننا ننتمي إلى أهل القبيلة كمجال للدراسة، وموقعنا الأكاديمي بصفتنا باحث معني بالدرجة الأولى بمهمة تنفيذ الملف المنهجي لعملا الميداني.

حاولنا أن نقدم موضوع البحث باعتباره موضوعا انعكاسيا ناتج عن تجربة ميدانية معيشة، من جهة أخرى، كان الوقوف على الأشكال المحلية للأنماط التدين بصيغة المؤنث كما عشتها وشاركت فيها من خلال " حضور المواسم، وأماكن العبادة والزوايا والأضرحة، منابع المياه، أشجار مقدسة لا تمس بسوء

¹¹² - رشيق، حسن، 2018، القريب والبعيد: قرن من الأنثروبولوجيا بالمغرب، تعريب وتقديم حسن الطالب، الدار البيضاء، بيروت، منشورات المركز الثقافي للكتاب، ص 112-113-114.



ولا تقطع..."، بحثا عن المعنى في الأفعال والممارسات الطقوسية بناء على الأدوات المنهجية في صيغتها التالية: "المرافقة والمجالسة والذاكرة" بمعنى المقابلة بتعبير الباحث المغربي محمد مزور¹¹³.

وفي كثير من الأحيان ما تجسد الزيارات لأماكن العبادة والمقدسة من قبل ممارسي الفعل الديني والتي يحضر فيها نظام الهبة أو نظام التبادل كما كشفت عنها أعمال وأبحاث مارسيل موس، والتي لا يمكن أن نحصر أنواعها المختلفة التي تتنوع من شخص إلى آخر ومن انتماءات اجتماعية، ومن مكان تعبدي إلى آخر ومن الحاجة التي يرغب فيها الزائر الحصول عليها من هكذا زيارات (تتشابه الزيارات وتختلف الحاجة من ورائها) فبقدر ما تتعدد الزيارات بقدر ما تتباين الرغبة في الحصول على المراد وتكون الحاجة "مقضية" بفعل عامل أساسي " النية " الذي يسود ويشكل حصة الأسد في هكذا مناسبات.

إن الدخول في الاشتغال على موضوع النسائي من وجهة نظر سوسيوانثروبولوجية انعكاسية يتطلب ما سماه إيمانويل ليفيناس بالانحناء إلى المجال البين ذاتي في العلوم الاجتماعية، ويفهم من هذا القول، بأن المجال الذي لم يصغ إليه بعد علماء الاجتماع بالقدر الكافي، وتفاعلا مرة أخرى مع المادة المعرفية الغنية التي يقدمها موضوع الاشتغال الذي أنجزناه، مما لا شك فيه أننا قمنا وبذلنا جهدا بين دقات هذا البحث السوسيولوجي، ومن خلال دور التجربة الاثنوغرافية التي بالأساس آلت إلى الكشف عن المسافة التي تجمع بين (علاقة الباحث بميدانه والمسافة بينهما) والتي شكل موضوع التدين النسائي في المجتمع القروي موضوعا للتفكير الانعكاسي بناء على الصيرورة التفاعلية والرمزية كونه حقلا اجتماعيا مسكونا بالرمز والدلالة والمعنى.

فمن سمات المعرفة العلمية الاشتغال بالجزئي في أفق العودة إلى الكلي، ثم نضيف تحديد الموضوع وحصر مجال الاشتغال نموذج منطقة جغرافية محددة بقبيلة أيت وراين، هذا إلى جانب الملف المنهجي المعتمد في البحث، مع كيفية الاستفادة من وضع الباحث كونه ينتمي إلى مجتمع الدراسة دارسا لمختلف الأبعاد والعناصر المشكلة للسياقات الثقافية لهذا المجال الخصب والبكر، وهنا نروم فهم الوضع الذي يراوح بين أن الباحث عضو من أبناء المنطقة وباحث إثنوغرافي يسعى إلى دراسة التدين النسائي القروي، هذه الوضعية جعلتنا موضوعا للدراسة والبحث، وفي هذا الصدد أشار الباحث المغربي حسن رشيق، إلى مدة الإقامة والموقع الاجتماعي للباحث، كما يضيف طرق وأشكال التواجد والولوج والانتماء

¹¹³ - مزور، محمد، 2025، من تقديم لكتاب عبد الله هرهار، إثنوغرافيا أيت وراين، الأرض والثقافة، سلسلة دراسات وأبحاث 8، منشورات مركز روافد للدراسات والأبحاث في حضارة المغرب وتراث المتوسط، ط 1، ص. 7-8.

كعوامل تكون بمثابة المحصلة للأشكال الروابط التي تجمع الباحث بموضع وميدان اشتغاله¹¹⁴، وإلى ما يطرحه هذا الأخير لأي باحث إثنوغرافي يقوم بدراسة مجتمعه الخاص، من التباس يبقى مخفوفًا بالعثرات المنهجية، إلى الحد الذي يتأثر من توجه الإثنوغرافي بموقعه هذا، وفي هذه الوضعية غالبًا ما يتماهى الباحث مع مكونات ميدان الدراسة، لأنه يمكن أن لا نكون توفقنا "عثرات الباحث بياضات وإخفاقات في إنجاز موضوعات البحث" في مهامنا بكوننا باحثًا، ودوره في مجتمع الدراسة، الباحث/مشارك في البحث في الآن ذاته.

وفي نفس السياق هناك من يرى أنه من الصعب بمكان لعلماء الاجتماع والأنثروبولوجية التوفيق بين الانغماس في الحياة الاجتماعية للمشاركات في البحث والابتعاد عن موضوع الدراسة، كما كان يردد بيير بورديو ما لم يكن القائم بالملاحظة ملحوظًا في نفس الوقت¹¹⁵، بمعنى أن ما ينبغي على الباحث أن يتسلح بها، مدى قدرته على وضع مسافة بينه وبين موضوع البحث، تلك المسافة بين الذات والموضوع يستطيع الباحث أن يكيف وضعه الإثنوغرافي (مد وجزر، ذهاب وإياب) هي أدوات وآليات منهجية تمكننا من مدى قدرتنا على التحكم والتمكن من خلق مسافة بين الباحث وموضوع البحث.

ثالثًا: الباحث والميدان مشكل السياسة الدينية الرسمية

هكذا نصل إلى أن أفق التفكير في إشكالات وأسئلة ظلت ترافقنا طيلة مسار هذا البحث السوسيولوجي، أسئلة وأخرى أدت إلى تمهيد الطريق وتهيئة السياق الاجتماعي والثقافي للدخول والمغامرة الميدانية من خلال إجراء مقابلات واستمارات كمية وكيفية مع نساء يغلب عليهن الطابع التقليدي شكلا لا مضمونا، لم يكن من السهل الحصول على موافقة النساء في التفاعل مع أسئلة المقابلة كانت كلمة بحث تثير الكثير من أوجه الريبة والتحفز لديهم، تثير امتعاضهم، حينما يتم دعوة المشاركات في البحث لإجراء مقابلة في لقاء ثنائي، نتحدث في هذا الصدد عن شبكة علاقات الصداقة، التي نستعير؛ من الاستعارة تشبيهها بكرة الثلج كلما انحدرت نحو الأسفل إلا وكبرت وزاد حجمها، إذ كشفت النساء في هذا البحث عن حجم المقاومة الاجتماعية التي واجهتنا في هذه الدراسة السوسيولوجية والأنثروبولوجية لمجتمع قروي

¹¹⁴ - رشيق، حسن، 2018، القريب والبعيد مرجع سابق، ص 97.

¹¹⁵ - قدوري، عبد الكريم، 2023، دعائم الأنثروبولوجيا: النظريات والمفاهيم الأساسية، منشورات ابن النديم للنشر والتوزيع، وهران، ص، 27.

تسود فيه الرواية الشفوية عكس هذا النص الذي نسعى إلى كتاباته وحفره بمعاول ومناهج عصرية تتجاوز الرؤية الأحادية إلى رؤية عابرة للتخصصات.

فقد تعرضنا في أكثر من مرة لعدة أشكال من الرفض واللاتهام والوصم الاجتماعي، وصلت أحيانا إلى السب والقذف الضمني وغير المباشر، ولولا تدخل بعض من معارفي في المنطقة الذين يعود لهم الفضل في تهدئة الأوضاع وإعادة التوازن الاجتماعي، مما أتاح لنا استئناف المقابلات والحوارات التفاعلية المرنة والديناميكية بشروط زمنية ومكانية وسياقية محددة، وتجدر الإشارة إلى أن كوننا من أبناء المنطقة ملاحظا/ملاحظا، خارجي/براني عن القبيلة، فإن الباحث هو ابن الدار، ليست هذه الصعوبات هي العقبات الوحيدة التي اعترضت طريقنا، بل هناك أصعب الصعوبات أو تاج الصعوبات، حين يتعلق الأمر بكون الباحث إثنوغرافي في عقر داره، هذا ما يتطلب من الباحث أن يتضافر الجهد ومكابدة الانفصال ومعاودة الذات كي تتخلى عن بدايتها¹¹⁶؛ فكوننا من أبناء المنطقة لم يكن دائما عامل تسهيل، بل لعب في بعض الأحيان دورا معاكسا، إذ أفرز سوء فهم للبعد العلمي للبحث وتجاوز الحس المشترك المحلي - الثقافة المحلية - كما أن تحفظ النساء المتدينات اللائي قابلناهم وصمتن الانتقائي ومحاولتهن الإجابة وفق إرادتهن وبما ينسجم مع ما يعتقدن "أنه الجواب المقبول والمبحوث عنه" وضعنا أمامهن أسئلة المقابلة التي راعينا فيها ترتيب أسئلة المقابلة بين التدرج والتنفيس والتحفيز، كما تطلبت إعادة التفكير في تقنية المقابلة، وتكرار الأسئلة بصيغ مختلفة لتقادي التموه أو الإجابات الجاهزة، وفي حالات عديدة كان الانسحاب من المقابلة الخيار الأنسب تقاديا للإكراه الرمزي أو تشويه المعطيات، وعلى الرغم من أن التقليل بين دواوير الجماعة الترابية بمجتمع الدراسة ثم في غالب الأحيان بسلسلة مع ذلك فإن مسار البحث لم يخل من أشكال متعددة من الوصم الاجتماعي، حيث وصف الباحث بـ "الباحث عن الكنوز" أو "المسخر من طرف المخزن" أو "جابي الضرائب" بتعبير الباحث السوسيولوجي عبد الغني منديب؛ وهي تمثلاث تعكس الثقافة التحتية المضمرة التي تسري في النسيج الثقافي والاجتماعي بشكل غير معلن، وتعيد إنتاج الشك في كل فعل بحثي وافد من خارج المنظومة المحلية.

وفي السياق ذاته ورغم تقديمنا لكل الضمانات الأخلاقية والمنهجية المرتبطة بالبحث العلمي والإفصاح عن موضوع الدراسة، وجامعة الانتماء وطبيعة استخدام المعطيات الميدانية، فقد واجهنا رفضا

¹¹⁶ --- مزور، محمد، من تقديم لكتاب عبد الله هرهار، 2025، إثنوغرافيا آيت وراين، الأرض والثقافة، سلسلة دراسات وأبحاث 8، منشورات مركز روافد للدراسات والأبحاث في حضارة المغرب وتراث المتوسط، ط 1، ص 8.

تاما من طرف المندوبية الإقليمية لوزارة الأوقاف والشؤون الدينية بإقليم جرسيف، ثم التعبير عنه بشكل كتابي، حال دون إجراء مقابلات فردية أو جماعية مع المرشحات الدينيات والمؤطرات في مجال محو الأمية، وهو ما يطرح تساؤلات عميقة حول علاقات المؤسسات الدينية الرسمية بالبحث السوسيولوجي واستقلاليته.

انصب هذا البحث على دراسة الظاهرة الدينية بصيغة المؤنث، كان الغرض منها ليس إطلاق أحكام قيمة وجاهزة ندين هذه الظاهرة أو نبررها، ومهمة من هذا الحجم لا يمكن إدراكها ما لم نستوعب قول **اسبينوزا** " لا تأس، لا تحزن، ولكن افهم "، وعندما نكتب لا نتوخى التقليل من جماعة ما أو احتقارها أو مسا بكرامة وشرف أهلها، نكتب " لمساعدة القراء على فهم أنفسهم ضمن العالم " كما كان يردد **بول باسكون**، وحيث من السهل أن نصدر حكما، وعندما نصدر حكما جاهزا على فعل وسلوك معين فإننا نجنب أنفسنا عناء البحث والتحليل ونحرم أنفسنا من الكشف عما " سحر العالم " كما كان يردد **ماكس فيبر**¹¹⁷، والغاية من فتح هذا النقاش الهجين والمركب بهدف فك شفرات ومعاني ورموز التدين النسائي في المجتمع القروي، لقد ابتعدنا قدر الإمكان عن محاكمتها أو معقوليتها، أو حتى أن نفكر في الحثيات البحثية في محاولة إثبات معقوليتها أو نفيها في نصوص هذا العمل، كون هذه " التجربة التدينية " شكلت لنا نصا مجالا قابل للقراءة والقراءة المضادة، ميتا قراءة للفعل التديني في الوسط القروي التي تعاش فيه التجربة التدينية الفريدة من نوعها، أو حتى أن ننقص أو نزيد من مكانتها داخل المجتمع، لكن ما يهمنا كباحثين في علم الاجتماع دراستها كظاهرة اجتماعية، بمعنى تفسير الاجتماعي انطلاقا من الاجتماعي وليس من خارج المجتمع، ويمكن الإشارة في هذا الصدد أن الصراع والتدافع لا تحدده دائما الشروط المادية والاقتصادية، بل هناك جانب مخفي ومضمر في حياتنا اليومية والرمزية يكون مجالا للصراع والتنافس وتختبر فيه علاقات المعنى وتصبح مدخلا لفهم الأبعاد الاجتماعية والثقافية، الأنثروبولوجية.

لقد اقتضى منا إجراء المقابلات والتفاعل مع المشاركات/ والمشاركين بشكل دينامي ومرن في سياق اجتماعي وثقافي بعيدا عن الإكراه والإلزامية، مع فرضيات البحث وإشكالاته كما مع مواقف وآراء

117 - هرمار، عبد الله، 2025، إثنوغرافيا آيت وراين، الأرض والثقافة، سلسلة دراسات وأبحاث 8، منشورات مركز روافد للدراسات والأبحاث في

حضارة المغرب وتراث المتوسط، ط 1 ص 165.

ومعرفة الفاعلين/ الفاعلات في الحقل الديني الذي يشبه رقعة الشطرنج¹¹⁸، والتي تشكل بالأساس في هذه الوضعية الإثنوغرافية بحقل ملتهب يستوجب في كثير من الأحيان ما عبر عنه عبد الفتاح كيليطو "بالكتابة بالإبر على آماق البصر"، ما يجعلنا أمام صعوبة تطبيق وصفة منهجية جاهزة ومعدة بشكل مسبق في ميدان البحث السوسيولوجي، لأن هذا الموضوع يدخل ضمن الموضوعات التي كانت توضع في الأدبيات السوسيولوجية والأنثروبولوجية مواضيع في غاية من الانفلات والحساسية الإثنونظرية¹¹⁹ وفي واقع يهاب ويرتاب فيه الفاعلون من مسألة الإفصاح عن قناعتهم ومواقفهم، حتى لو تعلق بسياقات الممارسات العلمية، كما الدوافع وراء استعمال تقنية المقابلة الفهمية منذ المرحلة الأولى للبحث التمهيدي الأول تتجلى في محاولة فهم الكيفيات التي تعيش/ حضور المعتقد والممارسة الدينية للنساء القرويات في حياتهن اليومية، انطلاقاً من التعبير عن تجاربهن الخاصة والمخصوصة في سياقات تفاعلية وحوارية بالقرية المغربية حالة أيت وراين الشرقية بشرق المغرب.

فحينما يتعلق الأمر كما نقدمه الآن نموذج للوضعية الإثنوغرافية لبحثنا؛ بالبحث السوسيوانثروبولوجي نحاول استنطاق وتشخيص واقع التدين وأنماطه وأشكاله في سياقات متعددة، غير أن هذا الأمر لا يتحقق ما لم تمر العملية من خلال استحضار البعدين السيكولوجي والانفعالي، كما وصف الباحث غاي ميشلا ذلك "فانطلاقاً من كل ما هو فردي وما هو انفعالي نسعى إلى استخراج ما هو سوسيولوجي"، ونضيف أن المقابلة ليست وصفة منهجية مكتملة الأركان والمعالم، حيث يؤكد كوفمان كونها محادثة حوارية تفاعلية لتبادل الأفكار والمواقف تنفتح على كل الاحتمالات والمستجدات والإمكانات، بما فيها إحداث قطيعة معرفية مع المعطيات التي نتوفر عليها حول الموضوع بشكل مسبق، وذلك من خلال توجيه الفرضيات بناء على ما هو واقعي وكائن فعلياً وموجوداً في ميدان البحث؛ بمعنى أنها محادثة لا يتم فيها الحوار مع المشاركات/ والمشاركين فقط لأنهن يمتلكن آراء، بل لأنهن يتوفرن على معرفة قيمة، ما كان يردده كوفمان في أبحاثه وأعماله التي تحترم روح الميدان.

118 - العطري، عبد الرحيم، الحج معاشا/ ملاحظا من قلق الميدان إلى قلق المعنى، مقال ضمن كتاب جماعي: البحث الميداني في العلوم الاجتماعية، تجارب مقارنة، تنسيق: د. عبد الغني منديب، أشغال الندوة العلمية البحث الميداني في العلوم الاجتماعية، ربيع العلوم الاجتماعية، جامعة الأخوين: 09-10-11-2021، ص، 50.

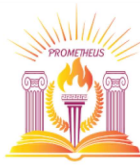
119 - منديب، عبد الغني، في التدبير المنهجي للتدين كموضوع للسوسيولوجيا: رجوع فاحص ومتفحص للدراسات الميدانية، مقال ضمن كتاب جماعي: البحث الميداني في العلوم الاجتماعية، تجارب مقارنة، تنسيق: د. عبد الغني منديب، أشغال الندوة العلمية البحث الميداني في العلوم الاجتماعية، ربيع العلوم الاجتماعية، جامعة الأخوين: 09-10-11-2021، ص 34-35-36.

إنه بالفعل كانت تجربة وتمرينا ومغامرة صعبة في تقرير والخروج بهذا النص المكتوب وتجاوزا لمطبات القراءة وممكناتها¹²⁰ ولمعضلاتها؛ أضف إلى ذلك الدور الفعال الذي يلعبه قلق الكتابة وأزمة تفرغ وأزمة كتابة الذي لم يفارقنا طيلة كتابة هذا البحث ومحاولة إنجائه وسد بيضاته من خلال قراءة وعودة إلى المعطيات الميدانية، ذهاب وإياب، إنها بالفعل كانت معاناة محفوفة بالمخاطر في حبكة النص الرامز والمرموز، فمع كثرة المعلومات وتدفقها الشديد رافقه إشكال من نوع ثاني يتعلق الأمر بالميدان والتدبير المنهجي كون التنقل فيه كان دون آلة تسجيل، أو دفتر أو قلم؛ حيث كان جمع المعطيات يعتمد على الذاكرة (ذاكرة الباحث) في تخزين المعلومات التي نقف بين كونها صافية ونقية، نحن أمام ثنائية مهم غير مهم، دون أن ننسى أعطاب الذاكرة وما قد يصيبها من إتلاف ونسيان، وكان اللجوء إلى استحضار ما يعرف في هكذا مقامات "بسرير بروكريست" في الحكي، لكن الأمر عكس ذلك تماما أثناء العودة إلى مرحلة الكتابة والتركيب وأخذ الحيلة والحذر من كتابة النص متعدد الأصوات بناء على معايير علمية وثقافية بالدرجة الأولى، من الصعوبات ما تجلى في إدراك التجربة التدينية النسائية كما يفهمها المشاركات/ والمشاركون ويتمثلها في الفعل؛ المعتمد والممارسة، لأن لكل شخص فهم وتمثل معين للفعل التعبدي مغرق في الذاتية، فالتدين نص/ مجال/ رامز لا ينضبط للانغلاقية يؤثر ويتأثر وفاعل ومفعول به في كثير من الديناميات الاجتماعية والثقافية والأنثروبولوجية، انطلاقا من علاقة الثابت والمتحول في ضوء صيرورة التغير الاجتماعي بالمجتمع القروي المغربي حالة آيت وراين الشرقية بشرق المغرب جرسيف.

خاتمة:

لقد حاولنا أن نخلص في هذه الورقة البحثية موضوعا وبحثا؛ شكلا ومضمونا، من خلال الوضعية الإثنوغرافية للباحث في ارتباطها بالتدبير المنهجي للمسافة بين الباحث وموضوع بحثه كورقة خصصناها للدراسة الميدانية وأجراً المفاهيم المرتبطة بهكذا موضوعات سوسيولوجية وأنثروبولوجية بالمجتمع القروي المغربي، انطلاقا من وقوفنا على تفاصيل التفاصيل (أنثروبولوجيا التفاصيل) التي تعترض الباحث/ والمبحوث في نفس الوقت.

120 - للتوسع أكثر، الاطلاع على أعمال الباحث السوسيولوجي عبد الرحيم العطري، الحج معاشا/ ملاحظا من قلق الميدان إلى قلق المعنى، مقال ضمن كتاب جماعي: البحث الميداني في العلوم الاجتماعية، تجارب مقارنة، تنسيق: د. عبد الغني مندوب، أشغال الندوة العلمية البحث الميداني في العلوم الاجتماعية، ربيع العلوم الاجتماعية، جامعة الأخوين: 2021-11-10-09.



لقد حاولنا في هذه الوضعية الإثنوغرافية الوقوف على دور القيم الاجتماعية والثقافية بمجتمع الدراسة، بدء بالمرحلة الأولى من البحث التمهيدي، من خلال حضورنا في مناسبات تختلف في الزمان والمكان خاصة في تعالقها ببرنامج ومخطط البحث الميداني، من جهة، لقد أدت هذه الورقة العلمية إلى مناقشة أفكار المتداولة بين دفات هذا البحث العلمي؛ من سلوكيات وأفعال، انطباعات، ردود أفعال واضحة وبينة/مضمرة ومتخفية، مواقف أفراد وجماعات رسمية وغير رسمية آلت إلى طرح سؤال قديم/جديد، يرتبط بعلاقة البحث السوسيولوجي واستقلاليته.

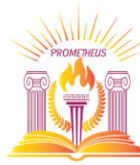
علاوة على ما سبق، حاولنا في هذه الورقة البحثية معالجة إشكالية تدبير المسافة بين الباحث وموضوع بحثه، انطلاقاً من كون الباحث/ باحث في عقر داره؛ بمعنى القبيلة كمجال للدراسة الميدانية بأيّت وراين الشرقية بشرق المغرب، جرسيف، هذا إلى جانب اعتبار المغامرة والدخول في تمفصلات الميدان لجمع المعطيات (المقابلة والاستمارة)، وقد لا نتوقع ونحن نغوص في دروب الميدان وتشعباته؛ بمعنى مجريات الحوارات واللقاءات مع المشاركين/ والمشاركين في البحث؛ لذلك كل شيء ممكن ووارد في نفس الوقت ومتوقع وغير متوقع المهم أن يكون الباحث متيقظ باستمرار ويقظ في التعامل مع كل الاحتمالات الواردة من الميدان.

يظل البحث في إطار تشخيص علمي ومنهجي لإشكالية الوضعية الإثنوغرافية للبحث الميداني، مرتبط أساساً بأسئلة بحثية قادمة ومنتظرة تستحق المزيد من الحفر في بنائها المعرفي؛ ويمكن أن تختبر فيه جدته النظرية والمنهجية في دراسات وأعمال أخرى، يتجه هذا البحث الذي بين أيدينا إلى التمهيد لها ووضع اللبنة التي يمكن اعتبارها الأولى من نوعها في مجال بكر وعصي عن الإدراك.

المراجع:

- إديل، عمرو، 1995: من جندي القبيلة إلى جندي الدولة؛ ملاحظات حول القوة العسكرية لدى قبائل أيت وراين، مجلة أمل، العدد 18، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، المغرب.
- إسماعيل، علواش. أطروحة دكتوراه غير منشورة. التدين النسائي بالمغرب، بحث في الطقوس والممارسات الدينية دراسة سوسيوانثروبولوجية لمنطقة أيت وراين، إشراف د. زبيدة أشهبون، نوقشت يوم 25-04-2026.
- برحاب عكاشة، 2002: قبائل شرق تازة بين التوسع والدعوة إلى المهادنة-1909-1912، مجلة الذاكرة الوطنية، مطبعة بني ازناسن.





- حمودي، عبد الله، 2019، المسافة والتحليل: في صياغة أنثروبولوجيا عربية، دار توبقال للنشر، البيضاء، المغرب.
- رشيق، حسن، 2018، القريب والبعيد: قرن من الأنثروبولوجيا بالمغرب، تعريب وتقديم حسن الطالب، الدار البيضاء، بيروت، منشورات المركز الثقافي للكتاب.
- العطري، عبد الرحيم، الحج معاشا/ ملاحظا من قلق الميدان إلى قلق المعنى، مقال ضمن كتاب جماعي: البحث الميداني في العلوم الاجتماعية، تجارب مقارنة، تنسيق: د. عبد الغني منديب، أشغال الندوة العلمية البحث الميداني في العلوم الاجتماعية، ربيع العلوم الاجتماعية، جامعة الأخوين: 09-10-11-2021.
- قدوري، عبد الكريم، 2023، دعائم الأنثروبولوجيا: النظريات والمفاهيم الأساسية، منشورات ابن النديم للنشر والتوزيع، وهران.
- منديب، عبد الغني، في التدبير المنهجي للتدين كموضوع للسوسيولوجيا: رجوع فاحص ومتفحص للدراسات الميدانية، مقال ضمن كتاب جماعي: البحث الميداني في العلوم الاجتماعية، تجارب مقارنة، تنسيق: د. عبد الغني منديب، أشغال الندوة العلمية البحث الميداني في العلوم الاجتماعية، ربيع العلوم الاجتماعية، جامعة الأخوين: 09-10-11-2021.
- المودن، عبد الرحمان، 1995: البوادي المغربية قبل الاستعمار قبائل إيناون والمخزن بين القرنين 16 و19، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية أكدال الرباط، سلسلة اطروحات ورسائل العدد 25، جامعة محمد الخامس مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، المغرب.
- هرهار، عبد الله، 2025، إثنوغرافيا آيت وراين، الأرض والثقافة، سلسلة دراسات وأبحاث رقم 8، منشورات مركز روافد للدراسات والأبحاث في حضارة المغرب وتراث المتوسط، ط1.

